الباب الأول

عوامل ازدهار النثر في العصر الأموي

أ- تمهيد

إذا ذهبتَ مذهبَ من يقولون - وطه حسين منهم -: إن الشعر أقدمُ من النثر، فعليك أن تعلّل ما تذهب إليه تعليلاً مقبولاً، كأنْ تقول: الشعرُ لغةُ القلب والعاطفة، والنثر لغة العقل والمنطق. والشعوبُ عامَّة، لا العربُ خاصَّة، تبدأ حياتها الأدبية شاعرةً قبل أن تصبح ناثرة، وعاطفيّةً قبل أن يضعف عواطفَها العقلُ، ويكبح جماحها المنطق. وتنتقل من المنظوم إلى المنثور. والمقصودُ بالمنثور ههنا خُطب الخطباء، ومواعظ الحكماء، ووصايا الآباء للأبناء، والأمثال السائرة، والأوصاف الفنية، لا كلام الدهماء والغوغاء من عامة الناس.

وقد تشفع التعليلَ بدليل، فتقول: لو رجعنا إلى تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي لوجدنا كثيره شعراً، ويسيره نثراً، والاحتكامُ إلى الأرقام يوضّح كثرة الشعر وندرة النثر، ويثبت صحة ما ذهبنا إليه.

فالجزء الأول من هذه السلسلة - وهو الأدبُ الجاهلي - انطوى على سبع مئة صفحة، لم يَفُز النثر فيها بأكثر من خمسين. والدكتور شوقي ضيف درس الشعر الجاهلي في أربع مئة صفحة، والنثرَ في خمس وعشرين، فجاءت نسبةُ النثر إلى الشعر صِنْوَ مثيلتها في الكتاب الأول أو أقل.

obeikandl.com

وهبْك عدلت عن الاحتكام إلى الأرقام في عدد الصفحات، واحتكمت إلى أرقام الأعلام، فعدولُك عن طريقة إلى طريقة لا يُغير الحقيقة. إن أستاذنا الدكتور عمر فروخ - رحمه الله - درس أعلام الأدب الجاهلي، ولم يدرس أغراضه، فذكر واحداً وخمسين علماً، ليس فيهم إلّا خمسةٌ رَهْط ممّن أُثر عنهم تغليبُهم النثرَ على الشعر، وهم: أكثمُ بن صيفي، وحاجبُ بن زرارة، وأوس بن حارثة، وقبيصة بن نعيم، وعامر بن الظرب. وهؤلاء جميعاً لم يظفروا من الكتاب بأكثر من ست صفحات، دُرِست فيها حَيَواتهم وأخبارهم وأفكارهم، وشُفعت فيها الدراسةُ بالشواهد.

وحينما بزغ فجرُ الإسلام تهيَّأت للنثر العربيّ عواملُ ارتقت به، فاتَّسعت ميادينه، وتعدَّدت أغراضه، وعظم مقداره، وأستاذُنا د. شكري فيصل - رحمه الله - كان قد أبرز عاملين من هذه العوامل[١]: أحدهُما سلبيّ، وهو ضآلةُ النثر في العصر الجاهلي، والآخرُ إيجابيّ، وفَحْواه أن الإسلام أضعفَ الشعر، وجعل النثر عوضاً منه، ليملأَ المكانَ الذي خلا، والفراغَ الذي اتَّسع.

ونحن نزعم أن هذين العاملين أضعفُ من أن يُعَلَّل بهما اتساعُ النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة. أمَّا قلَّة النثر الجاهليّ فقد تكون ناجمة عن خَوَرِ الذاكرة الناقلة، لا عن بلادةِ الملكة الناثرة، ومن المعروف أن المنظوم أَعْلَقُ بالذهن من المنثور، وأن العرب نقلوا تراثهم إلينا من صدور الحَفَظَة، لا من سطور الكَتَبة. وأمَّا الإسلام فإنه لم يُضْعِف الشعر، بل هذَّبه، وارتقى به. فلا بدّ من أن يكون رقيُّ النثر الإسلامي ناجماً عن عوامل أخرى، فما أبرزُ هذه العوامل؟

أبرز العوامل - كما ذكرنا في الجزء الرابع[٢] من هذه السلسلة - ثلاثة:

أوّلُها: تطوُّر الحضارة العربية، وحاجة الدولة الناشئة إلى كتابة تنظم شؤون الإدارة، ودواوين تسجل أمورها، وتضبط مواردها، وترصد مصارفها وأعطياتها.

وثانيها: الصخب السياسي الذي رافق إنشاء الدولة، وما خالط إنشاءها من اختلاف الصحابة في الخلافة.

---

(١) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول/ ٣٥٠.

(٢) النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة/ ٧٢٠.

وثالثها : اتساعُ الفتوح بعد القضاء على حركات الردَّة، وحاجةُ الخلفاء إلى توجيه الولاة والعمال بالرسائل، وحرص القواد على تنظيم الأجناد، وحثِّهم على الجهاد بالخطب، وعلى كتابة العهود لأهل البلاد المفتوحة.

ب- عوامل الازدهار في العصر الأموي[١]

بعد أن اتسعت الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، وامتدَّت الفتوح في الشرق والغرب تطورت العواملُ السابقة، وأُضيفت إليها عواملُ لاحقةٌ، عملتْ عملَها في تطوير النثر العربي وتوسيعه، وتنويع أغراضه، وترقية أفكاره، وصَقْل أساليبه، فما أهمُّ هذه العوامل؟

١) التوجيه الديني

لم يكد النبيُّ ﷺ يبلغ المدينة مهاجراً إليها من مكة حتى بنى فيها مسجداً، يُذْكَرُ فيه اسمُ الله، ويُدْعَى فيه إلى الإسلام، ويُتَّخذ رمزاً لرسوخ الدولة الجديدة. ثم أصبح تشييد المساجد سنة متبعة في كل مصر، فحيثما ركز الإسلامُ راياته ارتفعت المنائرُ، ونُصبت المنابر، وراحت الحناجر تصدح بخطب الجمعة والعيدين، وأخذ الخطباء يَجْهرون بالدعوة إلى الدين الجديد، وينشرون عقيدته وتشريعه في مشارق الأرض ومغاربها.

وبعد أن انتصف العصرُ الأموي، وامتدَّت الفتوح من تخوم الصين الغربية إلى حدود فرنسة الجنوبية، أخذت حناجرُ الخطباء تبلِّغ مسامع البشر رسالة الإسلام بألسنة فصاح، لا تشوبُها شائبةٌ من عجمة. ولم يُؤْثر عن أحد من الخلفاء والأمراء، أو عمن ينوب عنهم أنَّه خطب، فجعل خطبته شعراً في جمعة أو عيد إلا الوليد بن يزيد. أمَّا عامة الخطب في العصر الأموي فقد كانت من أفصح النثر وأجوده، فعدتْ عاملاً من عوامل الارتقاء بالنثر المستلهم من الكتاب والسنة أفكاراً وعواطف وصوراً وغايات. هذا هو الضرب الأول من ضروب التوجيه الديني.

والضربُ الثاني نجم عن الأول، وأتمَّ غرضه ومَسْعاه، وهو الوعظُ

(١) انظر كتاب (العصر الإسلامي)، د. شوقي ضيف/ ٤٠٨ وما بعد.

بالقصّ، إذْ ظهر قوم من الوعاظ في المساجد يقصُّون على الناس قصص الأنبياء، وأخبار الأولياء، ويشفعون القصص والأخبار بما اطّلعوا عليه من أقوال الحكماء القدماء، وبما قبسوا من أسفار الأحبار، وبما نقلوا من المأثور عن أهلِ الكتاب. وربّما سمحوا لأنفسهم أن يتزيَّدوا ويفصِّلوا، ويبالغوا ويصوِّروا، بغية التأثير في القلوب، وتزهيد الناس في متارف الدنيا.

وحينما لاحظ الخلفاءُ والولاة مبلغَ هذا الضرب من التوجيه في الهيمنة على مشاعر الناس اشتقّوا منه ضرباً ثالثاً، إذْ جنّدوا البارعين من القصّاصين والواعظين للمنافحة عن سياسة الدولة، والدفاع عن حق بني أمية في الحكم، والحثّ على إطاعة أولي الأمر، وأَجْرَوْا عليهم الأعطيات، حتى غدوا وسيلة من وسائل الإعلام الرسمي الناطق بلسان السلطة. غير أنهم باحترافهم التوجيه صقلوا أساليب النثر، وطوَّعوا الفصحى، ويسّروها لعامة الناس، وجعلوها سائغةً في أسماع العرب والموالي على سواء.

وعن الضرب الثالث نجم رابع، إذْ سلك قادةُ الجيوش مَسْلَك الخلفاء والأمراء، فاصطحبوا في حملاتهم نفراً من هؤلاء القصاصين، وأمروهم أن يعظوا الأجناد، ويحثُّوهم على الاستشهاد بأخبار الأبطال وقصص التضحية. وكُتبُ التاريخ والمغازي حافلةٌ بمواعظ ونصوص توجيهية، كانت ترمي إلى تعبئة النفوس، وإثارة العزائم، والترغيب في الجنة، والتزهيد في زينة الحياة ومتاعها الزائل.

فعتَّابُ بن ورقاء قبل أن ينازل قائد الخوارج شبيب بن يزيد الشيباني [ت: ٧٧هـ] حمّس جنده بهذا الضرب من الوعظ. والحارثُ بن سريج التميمي [ت: ١٢٨هـ] حينما ثار على الأمويين في خراسان استعان بمواعظ جهم بن صفوان، فصنع جهمٌ ما يصنعه الوُعاظ في إثارة الجند وتعبئتهم، وصالحُ بن مسرِّح التميمي [ت: ٧٦هـ] - وكان زعيم الصفرية، وأول من خرج للقتال منهم، وكان كثير العبادة - سلك المسلك نفسه، إذْ أقرأ أصحابه القرآن، ووعظهم، ودعاهم إلى الثورة بالأمويين، وإنكار الظلم، ثم خرج بهم للقتال.

٢) علوم الدين واللغة

أكبَّ بعض التابعين في العصر الأموي على الكتاب والسنة والمغازي قراءة وإقراءً، وفهماً وإفهاماً، وجمعاً ورواية، فإذا هم يضعون الأصول الأولى لعلوم

دينية جديدة كلّ الجدة بمفاهيمها ومصطلحاتها، وإذا هم يشتقون من لغتهم الولود ألفاظاً فصيحة يحمّلونها ما وضعوا، فيرقون بالنثر العربي من طوره الفطري الحسي، إلى طور علمي مجرّد.

أما التفسير[١] فقد ظهرت بوادره في عهد النبوة والخلافة الراشدة، وأشهر الذين تمرّسوا به أُبَيُّ بن كعب [ت: ٢١هـ] وكان قبل أن يسلم حبراً من أحبار اليهود، مطلعاً على الكتب القديمة. وعبد الله بن مسعود الهذلي [ت: ٣٢هـ] وهو أحد السابقين إلى الإسلام، وصاحب رسول الله ﷺ في حلّه وترحاله وغزواته، وأشهر منهما عبد الله بن عباس [ت: ٦٨هـ] وهو حبر الأمة، وأعلم الناس بالقرآن، حتى قال عنه ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس». وكثيراً ما كان ابن عباس يقسم أيامه على علوم الدين، فيجعل يوماً للفقه، ويوماً للتفسير، ويوماً للمغازي. وينسب إليه كتاب «تفسير القرآن» جمعه بعض العلماء من أقوال ابن عباس المنبثة في كتب التفسير.

وأمّا المغازي[٢] فقد كانت العناية بها بعضاً من العناية بالسيرة النبوية، ومن أقدم التابعين الذين دوّنوها عروة بن الزبير [ت: ٩٣هـ] ووهب بن منبه [ت: ١١٤هـ]. وابن منبّه هذا كان عالماً بأساطير الأولين محيطاً بكثير من الإسرائيليات، مطَّلعاً على أخبار اليمن وملوك حِمْير. وله كتاب مخطوط في قصص الأنبياء. وربما كانت ثقافته التاريخية الواسعة من العوامل التي دفعته إلى العناية بالمغازي والفتوح والسيرة وأخبار الخلفاء.

وإذا كانت علوم الدين قد ارتقت بالنثر العربي في إطار التفسير والتشريع فإن علوم العربية حفظت هذه الأساليب من الانحراف والعجمة، وصانتها من التهافت، وأضافت إلى الفكر العربي مصطلحات ذوات دلالات جديدة، طوَّرته وتطوَّرت به. وأهم ما يهمنا ههنا النحو، لأنه أخطرها وأقدرها على ضبط اللسان وإحكام البيان.

لم يختلف الرواة في الدافع إلى وضع النحو، واختلفوا في الواضع؛ فالدافع، وإن تعددت الأخبار، هو حماية العربية من اللحن بعدما خالط العرب

(١) انظر كتاب (تاريخ الفقه الإسلامي)/ ١٥٦ وما بعد.
(٢) انظر كتاب (المغازي الأولى ومؤلفوها).

العجم. والواضع إمّا أبو الأسود الدؤلي بتوجيه من علي بن أبي طالب ﷺ، وإمّا برأي رآه أبو الأسود نفسه، وآمر فيه زياد ابن أبيه في أثناء ولايته على البصرة [٤٥-٥٣هـ]، فحسَّنه.

إن رجحت الأول ارتقيت بالنحو إلى عصر الراشدين، وإن أخذت بالثاني ورجحت أن يكون أبو الأسود الدؤلي [ت: ٦٩هـ] واضعه الأول عزوته إلى العصر الأموي. وعن أبي الأسود أخذ نصر بن عاصم [ت: ٨٩هـ] وكان نصر - والقول لياقوت الحموي - فقيهاً عالماً بالعربية. غير أن الواضع الحقيقي الذي أرسى النحو على أساسَي السماعِ والقياسِ هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي [ت: ١١٧هـ].

وأيّاً كان الواضع الأول، فإن هذا العلم الجليل ارتقى بالنثر من جهتين: أولاهما أنه رفده بمصطلحات ومفاهيم لا عهد له بها من قبل، والثانية أنه ضبط صياغة التراكيب، وحركات الألفاظ، وعصم الألسنة من اللحن والزيغ، وصان الأساليب من التهافت، وأحلَّ الخبرة محلَّ الفطرة، وعلّم الأعاجم كيف يكتبون، حتى نبغ منهم أمثال عبد الحميد الكاتب [ت: ١٣٢هـ] وعبد الله بن المقفع [ت: ١٤٢هـ].

٣) الحركة العلمية والترجمة

بعد أن هدأت حركة الفتح، واستقرَّ الأمرُ لبني أمية أخذَ العربُ يعايشون الفرسَ، وينقلون عنهم علومهم، ويحتكُّون بحضارتي الرومان واليونان احتكاكَ مجاورةٍ واقتباس، فيترجمون علومهم، ثم يصنعون على غرار ما يتعلَّمون ويترجمون، ويَثْقفون ويلقفون حركةً علمية متعدِّدة الألوان، لكنَّ اللون العربي بقي أسطع ألوانها، لأن الدخيل كان يخضعُ للأصيل، والجليبَ كان يُضْرَب على محكِّ العقيدة الإسلامية، فما خالفها نُوقش، وما وافقها أُخِذ، وأصبحَ بعضاً من بنائها الفكري. ولمّا كانت الحكمة ضالَّة المؤمن فإن العلوم المترجمة قُوبلت بالقبول لا بالرفض، وأصبحتْ بعضاً من البناء الفكريّ العربي، وحَمَلت المترجمين على أن يبتكروا لها المصطلحات العلمية الجديدة، ويطوّعوها للفكر الآخذ بالانتقال من البداوة الفطرية إلى الحضارة العلمية.

وأدلُّ ما يدلُّ على تأثر العرب بعلوم اليونان والرومان شَغَفُ خالد بن

يزيد بن معاوية [ت: ٩٠هـ] بالطب والنجوم والكيمياء، وانكبابُه على دراسة ما نُقل من هذه العلوم. قال صاحب الفهرست[١]: «رأيت من كتبه كتاب الحرارات، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب الصحيفة الصغير، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة».

وخالد هذا لم يكن رجل علم وحسب، وإنما كان يجمع العلم إلى اللغة، والطبَّ إلى الأدب، قال الجاحظ: «وكان خالد بن يزيد خطيباً شاعراً، وفصيحاً جامعاً، جيّد الرأي، كثير الأدب، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء»[٢]. ولا تخطئُ إذا استنتجت من كلام الجاحظ أن خالداً وأمثاله أسهموا في تطوير النثر، وفي نقله من إطار الأدب إلى إطار العلم، لأن نقل العلوم يقتضي تطويع العربية لأفكار ومعارف جديدة.

ولم يقتصر نشاط هذه الحركة العلمية على نفر من هُواة العلم، بل رعاه بعضُ الخلفاء، أو أمروا برعايته. فقد ترجم ماسرجويه بتوجيهٍ من الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز كتاب القسّ أهرن في الطب، ونقل سالم بأمرٍ من هشام بن عبد الملك بعضَ رسائل أرسطو. وإذا عرفتَ أن عبد الحميد الكاتب [ت: ١٣٢هـ] كان من تلامذة سالم هذا، وأنه كان من أئمة الكتَّاب، ومضربَ المثل في البلاغة أدركت عمق الأثر الذي تركتْه هذه الحركة العلميةُ في النثر الأموي. وإذا لم تكن الحركة العلمية وحدها هي التي ارتقتْ بنثر عبد الحميد، فإنَّها على أقلِّ تقدير أسهمت في تثقيفه، وميَّزته من لِداته، وأغرت به وبكتابته آخرَ الخلفاء الأمويين مروانَ بنَ محمد، فاستخلصه لنفسه، فعاشا معاً، وقُتلا معاً.

٤) النشاط السياسي

شهد الطورُ الأخير من عصر الخلافة الراشدة الممهِّدُ للعصر الأموي نشاطاً سياسيّاً خصباً، كان محوره الاختلاف فيمن يبايع له الناسُ بالخلافة. ثم أخذ هذا الاختلاف يتَّسع ويحتدم بعد مقتل عثمان بن عفان، ومبايعة علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما. وأقلُّ ما يقال في هذا النشاط الآخذ بالاتساع

(١) ص/٤١٩.
(٢) البيان والتبيين ١/ ٣٢٨.

والاندفاع أنه أوجد تربة خصبة لنموّ أحزاب سياسية، بعضُها يشايعُ ويبايع، وبعضُها الآخر يعارضُ ويناهض.

وكلا الفريقين المبايع والمعارض راح يدعو إلى ما يعتقد أنه الحق، يدعو إليه بألسنة الشعراء مرة، وبألسنة الخطباء أخرى، فيكون لكل فريق دعاتُه المفوّهون، وأنصاره المجادلون، وكلّهم ناظمٌ مفلق، أو خطيب مِصْقَع، شفع الملكةَ الموهوبة بالثقافة المكسوبة، والبيانَ الموروث عن فصاحة الجاهلية بالتشريع الجديد الذي أجمله الكتاب، وفصَّله الحديث.

وبعد أن ارتفعت المصاحفُ في (صفّين) انشطر معسكر عليٍّ صَفَّيْنِ، وغدا حزبه حزبين متعارضين: حزبَ الشيعة المظاهر، وحزبَ الخوارج المنافر، فإذا الفريق الواحد فريقان، وإذا ميدان الجدال بين عليّ ومعاوية يفضي إلى ميدان آخر، لا يقلُّ عنه صخباً في الاختلاف، وعُنفاً في الصراع، وإذا الحزبان المتصارعان يؤثران المنثور على المنظوم في المجادلة وسَوْق الحجج والأدلة، أو يُناقلان بين الشعر والنثر، فيرقى النثر، ولا يهبطُ الشعر.

ومقتل عليّ - كرَّم الله وجهه [سنة ٤٠هـ] بسيف عبد الرحمن بن ملجم، ثم مصرع الحسين - رضي الله عنه - [سنة ٦١هـ] بيد سنان بن أنس النخعي أو يد الشمر بن ذي الجوشن لم يُخْمدا نار الصراع، ولم يقمعا نزوع القادة إلى النزاع، بل شجعا عبد الله بن الزبير على الإمعان في مناوأة الأمويين، وأغريا المختار بن أبي عبيد الثقفي، بالاشتراك في الاعتراك، فظهر حزب آخر، يدعو إلى خلافة عبد الله بن الزبير، وكاد يظهر حزب يدعو إلى حقّ المختار، غير أن مصرع المختار [سنة ٦٩هـ] وإيثار الشيعة التقية والموادعةَ على المجاهرة بالعداوة حصرا الصراع بين الأمويين والزبيريين، وحرَّضا الشعراء والخطباء على أن يشتركوا في السياسة، ويعتركوا فيما اعترك فيه القادة، ويسخّروا ألسنتهم الشاعرة والناثرة لمظاهرة فريق على فريق.

ولم يكن النشاط السياسي وقفاً على الأحزاب، بل شارك فيه أفراد ذوو ثقافة واسعة، وأهل نظر، تناولت ألسنتهم جوانب متعدِّدة من أحوال البلاد، وآفاقاً أوسع من أفق الاختلاف في الخلافة، فاجتهدوا وانتقدوا، وفضحوا فساد الحكام، وظلم الولاة، وعسف الجباة، وسوء المعاملة، وفوضى الإدارة، حتى

أُطلق على نفر منهم اسم «الصعاليك السياسيين» لرفضهم الانضواءَ تحت رايات الأحزاب، وإيثارهم التفرد على التحزّب كما يتفرّد الصعاليك ويشذُّون عن قبائلهم.

٥) العصبية القبلية

لك أن تعدَّ العصبيةَ القبلية بعضاً من السياسة الأموية، ولك أن تَعُدَّها بعضاً من إرث الجاهلية. لقد أخمدَها الإسلام، وأطفأَها الراشدون، ثم أيقظها الأمويون ليضربوا بعضَ العرب ببعض، إذْ أشلوا قبائل اليمن على قبائل قيس، والأزدَ على تميم، وبطونَ تميم بعضَها على بعض.

ولم يكن الشعرُ وحده الوسيلةَ التي تترجم سُعارَ العصبية القبلية، وتُشعل سعيرَها بأحقاد الجاهلية وأيامها، بل كانت الخطبُ وسيلةً أخرى دائمةَ التنمُّر للصيال في كلِّ مَحْفِل، بها يتنافر القومُ ويفاخر بعضُهم بعضاً كما يتنافرون ويتفاخرون بالنقائض. وهذا يعني أن العصبية شاركت في تطوير النثر، وألهمت الخطباء، وأحيت البغضاءَ بتحريض من بني أمية على تأريثها، أو بإغضاء عمَّن أرَّثوها. ومن هذا التأريث أفاد النثرُ كما أفاد الشعر، لكنَّ حظَّ الشعر جاء أوفى وأشفى، وأذيعَ وأشهرَ.

٦) الفرق الدينية

يشقُّ على من يؤرِّخ الأدبَ في العصر الأمويّ أن يميِّز الفِرق الدينية من الأحزاب السياسية، لأنه متى ضرب آراءَ الأحزاب والفرق على محكِّ التمحيص وجدَ أنَّه لا استقلال في هذه الآراء للسياسة عن الدين. فالخوارجُ والشيعةُ والزبيريون والأمويون الذين سمَّيناهم (أحزاباً) صدروا عن المشكاة الدينية التي صدرت عنها (الفِرق).

وإن لم يكن بدٌّ من التفريق بين الفريقين فقل: إن الأحزاب السياسية دنيا ودين، والفرق الدينية دينٌ فقط. فالأحزاب تسخِّر الدينَ للدنيا، وهي تصطرع في سبيل الظفر بالخلافة، إذْ يشدُّها الدين إلى الآخرة، وتشدُّها السياسة إلى الدنيا. أمَّا الفِرق الدينية فإنها - على إدلائها دلاءَها في بئر السياسة أحياناً - لم تكن تتصارع في سبيل الظفر بالحكم، بل تتخذ من الحكم مواقف محايدة في أكثر الأحيان، وممالئة للأمويين في أقلّها، وتتفرَّغ للخوض في العقائد. فجوهرُها الدينُ لا السياسة، وغايتُها الآخرةُ لا الدنيا.

لقد سالمت المرجئة الشيعةَ والخوارجَ والأمويين، ولم تكفِّر أحداً منهم، وأرجأت الحكم لهم أو عليهم إلى أحكم الحاكمين، وحجَّتُها أن موضع الإيمان القلب، وأن الله أعلم من الناس بالسرائر. وممن ذهبوا هذا المذهب سعيدُ بن جبير الذي قتله الحجاج.

وخاضت القَدَرية في مسألة الجبر والاختيار، ورأت أن الإنسان يملك الإرادة، والإرادة تحمِّله التبعة، فهو إذن مسؤول عما يعمل من خير وشر. وممَّن ذهب هذا المذهب غيلانُ الدمشقي الذي قتله هشام بن عبد الملك.

وعارضت الجبرية رأي القَدَرية، وذهبت إلى أن الإنسان مُسيَّر لا مُخيَّر، ومُجبر على أعماله، وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق الحركة في الهواء، والجريان في الماء. ولهذا فالثواب والعقاب مقدران عليه كما قُدِّرت عليه الطاعة والمعصية. ومن رؤساء هذه الفرقة جَهْمُ بن صفوان الذي مات مقتولاً بتهمة سياسية لا دينية.

وذهبت المعتزلة إلى أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر، فهو فاسق يُعَذَّب لفسوقه. ومن زعمائها واصلُ بن عطاء الذي فارق الحسن البصري، واعتزل حَلْقَته، وراح يدعو الناس إلى مذهبه.

ولا يُقدِّر القارئُ تأثير هذه الفرق في تطوير النثر ما لم يقف على ما وُصِف به رؤوسُها من سعة في العلم، وحضور في البديهة، وطلاقة في الألسنة، وبراعة في المجادلة، وتمكُّن من اللغة، وإبداع للمصطلحات التي ترجموا بها أفكارهم الجديدة، وقدرة على إغواء الناس ببدع ابتدعها بعضُهم، فاضطر الأمويون إلى مقاومتهم ومراقبتهم لئلا يشوبوا نقاء العقيدة بأوشاب البدع.

فسعيد بن جبير[١] [ت: ٩٥هـ] «كان أعلمَ التابعين على الإطلاق» قال أحمدُ بن حنبل: «قتلَ الحجَّاجُ سعيداً، وما على وجه الأرض أحدٌ إلّا وهو مفتقرٌ إلى علمه». وغيلانُ بن مسلم الدمشقي[٢] [ت: ١٠٥هـ] كان مجادلاً بارعاً. ذكر ابن النديم أن له رسائل في نحو ألفي ورقة. وجهمُ بن صفوان

(١) انظر الأعلام: ٣/ ٩٣.
(٢) الأعلام ٥/ ١٢٤.

[ت: ١٢٨] كان - كما ذكر أحمد أمين[١] - «قد أقام بالكوفة، وكان فصيحاً خطيباً، يدعو الناس فيجذبُهم». وواصل بن عطاء [ت: ١٣١هـ] كان - والقول للزركلي[٢] - صاحب تصانيف كثيرة «وكان من أئمة البلغاء والمتكلّمين».

هؤلاء العلماء الأعلام وأمثالُهم من أصحاب النظر، وأهل البدع ما قُبل منها وما رُفِض، وما وافق العقيدة الإسلامية وما خالفها، بثّوا في الفكر العربيّ روحاً جديدة، حرَّكت الراكد، وأشعلت الخامد، إذْ راحوا يتحاورون ويتناظرون في المساجد والمجالس، ويحشدون في محاوراتهم كلَّ ما يستطيعون حشده من أدلة قطعية وظنيّة، يستمدُّونها من الكتاب والسنة، ليظاهروا ما يعتقدون أنه الحق.

ثم أخذوا يوسِّعون إطار الحوار، فجادلوا أهل الكتاب، وتشعَّب بهم الجدال من المنقول إلى المعقول، واضطروا أن يجابهوا أحبار اليهود والقسيسين النصارى بمثل الأدلة العقلية والفلسفية التي يحتجون بها، فانبثق من جدالهم علم الكلام، واغتنى النثر العربي، وظهرت فيه مصطلحات جديدة، وأخذ يصطبغ بصبغة منطقية، بلغت أوجها في عصر المأمون.

٧) الوفود والمحافل

منذ العصر الجاهلي شهد تاريخ العرب وفودَ الرسل من القبائل على الزعماء والملوك. ولم تتوقف هذه الحركة في عصر النبوة والخلافة الراشدة، بل تضاعف نشاطُها، وتعدَّدت أغراضُها، وكثر القصّاد والوافدون. وبعد فتح مكة أصبحت المدينةُ حاضرةُ الدولة العربية مَهْوَى الأفئدة، ومحجَّةَ الرسل، وعكاظَ الخطباء البلغاء، فيها تُلقى الخطب بين يدي رسول الله ﷺ، وتُعلن الطاعة، ويُجْهَر بالإسلام، حتى سُمِّي العام الذي أعقب فتح مكة «عام الوفود».

وفي عصر بني أمية تنافست القبائل في التوافد على الأمويين، وأصبحت قصور الأمراء والخلفاء ومجالسهم أسواقاً أدبية، يؤمُّها الرُسُل للتعزية أو للتهنئة، أو يقصدونها للاحتجاج على الظلم وطلب الإنصاف، أو ينتجعونها إذا نزل بهم الجدب، أو ينزلونها لتجديد البيعة وإسداء المشورة أو الفخر بالقبيلة.

---

(١) فجر الإسلام/ ٢٨٦.

(٢) الأعلام ٨/ ١٠٨.

ولمَّا كان الخلفاءُ الأمويون حِراصاً على الفصاحة والبيان، فإن القبائل كانت تتخيَّرُ من سراتها أصحَّ الخطباء جُسوماً، وأصبحَهم وجوهاً، وأفصحَهم ألسنة، وأقدرهم على استمالة القلوب، وإقناع العقول، لكي يبلِّغوها أغراضَها بأرقى المنظوم والمنثور، وأنقى الأساليب والتراكيب.

٨) النشاط الأدبي

إذا كان الشعر في حضارة الشعوب الإنسانية فنّاً من فنون كثيرة، فقد كان في حياة العرب القدماء الفنون كلَّها: بألفاظه كانوا يرسمون الألواح، وبصوره المجسمة كانوا ينحتون التماثيل، وبتفعيلاته وقوافيه يعزفون، فهو عندهم الرسم والنحت والموسيقا. لقد كان المنظوم من أدبهم أشهرَ من المنثور وأوفر، وأشفى للنفس، وأوفى بالغرض، حتى قيل: الشعرُ ديوان العرب.

ولمَّا انساحت الجيوش الفاتحة من الحجاز ونجد إلى العراق والشام حملت معها هذا الفنّ، وأقامت له بدلاً من عكاظ الحجاز مِرْبَد البصرة وكُناسةَ الكوفة، وعوضاً من خيمة النابغة مجالسَ الخلفاء والأمراء. وفَسَحَ له العربُ صدور المجالس، يُديرون حوله الحوار، ويضربونه على محكّ النقد، وعن محاورتهم ونقدهم نجم تراثٌ نثري ضخم، إن لم يكن أدباً إنشائياً يعدل الشعر، فهو أدبٌ وصفيٌّ يرفد النثر الفني الإنشائي. وأقلُّ ما يقال فيه إنه وليد الشعر، وإن الذين استولدوه من أدباء ونقاد ذوو مواهب أصيلة.

إن كلَّ ما كان يُنْشد من نقائض ومدائح ومفاخر ومراثٍ وأهاجٍ كان عُرْضةً للتحليل والتقويم، يحاكمه الأمراء والأدباء، وينجم عن محاكمته أدبٌ منثور يسير في ركاب المنظوم ويكمله، حتى اجتمع منه مقدارٌ وافر، ذكر الجاحظ كثيراً منه في البيان والتبيين.

ثم سار أدباء العصر الأموي في نشاطهم الأدبي خطوة أخرى، إذْ راحوا يؤلّفون الكتب، فصنع زياد ابن أبيه كتاباً في المثالب، ووضع زيادُ بن مفرِّغ قصَّة تُبَّع وأشعاره. وجمع بعضُ الأدباء أمثالَ العرب، وصنفوها في كتب، ومنهم علاقة الكلابي في زمن يزيد بن معاوية، وصحار العبدي، وهو خطيب مفوه شهد صفين مع معاوية. وفي بداية العصر الأموي جمع المستورد بن عُلَّفة التيمي - وهو من كبار الخوارج الخطباء الدهاة - الوصايا والحكم، وفي عهد

الوليد بن يزيد صنع يونس بن سليمان الكاتب [ت: ١٣٥هـ] كتاباً جمع فيه الأغاني، وهذا الكتاب يُعَدُّ الأصلَ الذي اعتمد عليه أبو الفرج في أغانيه. ويونسُ هذا كاتبٌ شاعر، أخذ الغناء عن معبد وطبقته، ولازم الوليد بن يزيد حتى وفاته.

٩) اتساع الدولة

أشرنا غير مرة إلى أن جيوش الفتح في العصر الأموي ظلت تحمل رايات العرب والمسلمين إلى أصقاع آخذة بالاتّساع، حتى امتدت على ثمانين درجة من درجات الطول بين كاشغر على عتبة الصين، وبواتييه في جنوب فرنسة. وهذا الاتساع في مساحة الدولة اقتضى مهارة في الإدارة، وتطويراً للسياسة، وتأسيساً لأجهزة الدولة الناشئة، وتنظيماً لأساليب الحكم، وتنسيقاً في إعداد الجيوش، وحصراً للمال العام، وضبطاً لطرائق الإنفاق، كما اقتضى أن يخالط العرب شعوباً لم يكونوا يعرفونها، وأن يحتكوا بلغات لا يثقفونها، فواجهتهم مشكلات تحتاج إلى تفكير وحلّ، وانتصارات تعقبها معاهدات. وكل ذلك لا يضبطه لسان يقول، وذاكرة تنسى، وإنما تضبطه أقلام، يسيل مدادها على قراطيس، ونصوص تُحْفَظ بالتسجيل، ودواوين تسع ما يُكْتَب.

هذا الواقع الجديد عمل عمله في تطوير النثر بعدما عمل عمله في إنشاء الدواوين. ومن روايات المؤرخين نفهم أن العرب في العصر الأموي دوّنوا الدواوين، واتصلوا بأبعد الدول منذ أيام معاوية. ذكر الجاحظ[١] في كتاب الحيوان أن الهيثم بن عدي روى عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير أنه رأى في ديوان معاوية بعد موته كتاباً من ملك الصين، وهذا يعني أن العصر الأموي من بدايته نظَّم شؤون الدولة تنظيماً مدوّناً.

وممّا يؤيّد هذا الزعم «أن دَغْفَلَ بنَ حَنْظَلَة السدوسي [ت: ٦٥هـ] كانت له مجالس عند معاوية، دوَّنها في كتاب له عنوانُه «التضافر والتناصر». وهذه المجالس دُوّنت بأسلوب حواريّ، إذْ يسأل معاوية عن قبائل العرب، ويجيبه دغفل بعبارات بليغة، احتفظ الجاحظ منها في بيانه وتبيينه ببعض طرائفها»[٢].

(١) الوثائق السياسية والإدارية في العصر الأموي/ ١٠.
(٢) العصر الإسلامي/ ٤٥١.

ما دار بين معاوية ودغفل بن حنظلة لم يكن إلّا خطوة من خطوات سبقتها ولحقتها، ومن غير المستغرب أن تكون اللاحقة أنفع من السابقة وأوسع. فأنت لا تكاد تبلغ عصر النقائض حتى تجد نفسك بين أعداد من الكتّاب، أكبُّوا على جمع التراث، ينقلونه من أفواه الأعراب، ويسجلونه في الدفاتر. من أبرزهم أبو عمرو بن العلاء الذي عاش شبابه وكهولته في العصر الأموي، وشاخ ومات في العصر العباسي [سنة ١٥٤هـ] «كان - والقول لأبي عبيدة - أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر». وفيه قال الجاحظ[١]: «كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له قريباً من السقف».

قد تعترض - واعتراضُك حقٌّ - فتقول: إن أبا عمرو هذا - واسمه زبان بن عمرو التميمي - من الكتاب المتأدِّبين، لا من الكتاب الرسميين. فأين كُتَّابُ الدواوين الذين أنجبهم اتساع الدولة؟

إن الكتاب الرسميين أكثر من أن يُحاط بهم ههنا، منهم[٢] أيوب بن زيد المشهور بابن القرِّيَّة [ت: ٨٤هـ]، وكان يكتب لعبد الرحمن بن الأشعث. وروح بن زنباع [ت: ٨٤هـ] كاتب عبد الملك بن مروان. وصالح بن عبد الرحمن [ت: نحو ١٠٣هـ] كاتب الحجاج في ديوان الرسائل. وسليمان بن سعد الخشني [ت: نحو ١٠٥هـ] كان من كتاب عبد الملك بن مروان على ديوان الرسائل، وهو أوّل من حوَّل دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية. والمغيرة بن عطية، وأخوه سعيد كاتبا يزيد بن المهلَّب. ويحيى بن يعمر [ت: ١٢٩هـ] وكان لغويّاً لامعاً قبل أن يكتب ليزيد بن المهلب في خراسان. وسالم مولى هشام بن عبد الملك، وكان يُحْسن اليونانية، وينقل منها بعض رسائل أرسطاطاليس.

وزبدة القول أنَّ توسُّع الدولة الأموية وسَّع آفاق الكتابة، وأضاف إلى النثر الأدبي ضرباً من النثر، بعضُه أدبٌ وقضاء وسياسة كرسائل الخلفاء إلى الأمراء والقضاة والولاة، وبعضُه اقتصاد وإدارة وتنظيم كالكتابة الرسمية الديوانية.

---

(١) العصر الإسلامي/ ٤٥٢.

(٢) انظر العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف/ ٤٦٥ وما بعد.

١٠) الاستقرار الاجتماعي[١]

بعد أن خمدت نار الفتنة الكبرى، وخَلَص الحكم لبني أمية، وقضى الحجَّاج على ثورة عبد الله بن الزبير في العراق والحجاز، لم يبق ما يعكّر صَفْوَ الحياة السياسية، وهدوءَ الأحوال الاجتماعية إلّا خروجُ رَهْط من الأزارقة هنا، ونَفَر من الصُّفْرية هناك، ثم لا يلبث الأمويّون أن يقمعوا هؤلاء وأولئك.

أمَّا السوادُ الأعظم من الشعب في الامتداد الواسع من الأرض، فقد أخلد إلى السكينة والطمأنينة، ونَعِمَ بالاستقرار السياسيّ والنفسيّ، وتحرَّر من القلق، وانكشف عنه الخوفُ من الاقتتال الداخليّ، والغزو الخارجيّ، وأيقن أنه يحيا في دولة مظفَّرة، تنتصرُ جحافلُها في الشرق والغرب، وتهدِّد دولةَ الروم، وتتودَّدُ إليها الصينُ، وتزدهر زراعتها وتجارتها في البرّ والبحر، فأغمد السيفَ، وشهر القلم، ووجَّه نشاطَه إلى ميدان آخر، لم يكن يجول فيه، وإذا جال لم يكن المجلِّيَ ولا المصلِّيَ.

وممَّا ساعد المجتمع العربيَّ في العصر الأموي على أن ينتقل انتقالاً سريعاً من ميادين الحروب إلى ميادين العلوم اختلاطُه بشعوب سبقته إلى الحضارة، وسبقها إلى الإيمان، فأعطاها الدينَ وغذاءَ الروح، وأعطته العلومَ وغذاءَ العقل.

وأتاح له الفراغُ من الجهاد أن يتفرَّغ للكتابة، فإذا هو ينتقلُ باللغة العربية من حيِّز التعبير عن الأغراض الفكرية الخالصة تعبيراً مباشراً إلى أُفق التعبير عن المشاعر النفسية والقيم الجمالية تعبيراً أدبياً.

وهذا الانتقال هيَّأ للنثر أسبابَ الرقيّ، وسمح للكتّاب أن يجوِّدوا وأن ينقّحوا، فتنافسوا في التجويد والإبداع، وحَرَصوا على الإمتاع، وخاصّةً في ميدان الترسُّل والخطابة، فكان النثر الفني الذي تمثَّلت فيه سماتُ التطوّر.

---

(١) انظر كتاب (المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري)/ ٣٧٤ وما بعد.